# بين الأمثـــال الشعبية الجزائـــرية والأمثــال الفصيحة

## *Des proverbes populaires algériens aux proverbes éloquents*

**أ. لزهــر مساعدية**
**المركز الجامعي لميلة**
**(*antarlazhar@yahoo.fr*)**

مُلخّص البحث

إنّ الأدب الشّعبي وإنْ كان محليا ومجهول المؤلف ويعتمد على الرواية والحفظ إلا أنه يلتقي مع الأدب الرسمي يحاكيه في كثير من فنونه، فعرفت الحكاية الشعبية، والمثل الشعبي، والشعر الشعبي، واللغز الشعبي، والنكتة الشعبية، والأغنية الشعبية، وهذه المحاكاة قد تستلزم التعامل مع الأدب الشعبي وفق الآليات التي يتعامل بها مع الأدب الرسمي.

وهذا بحث يهدف إلى حلّ الإشكال المطروح بخصوص أيّ من الأدبين يغذي الآخر؛ هل يمكن اعتبار الأدب الشعبي مغذيا للأدب الرسمي؟ أو أن الأدب الشعبي من مخلفاته؟ وما المؤثر منهما وما المتأثر؟

***Rèsumè***

*Même s'il est local et anonyme quant à son auteur et il se base sur la récitation, la littérature populaire s'inspire des mêmes points de repères avec celle de la littérature officielle. Les deux littératures font l'objet de simulation et d'intersection dans de nombreuses formes arts, notamment dans le conte populaire, le proverbe populaire, la poésie populaire, l'énigme populaire, la blague populaire et celle de la chanson populaire. Cette cohabitation pourrait, par influence, imposer les mécanismes de la littérature officielle en les dictant aux formes de la littérature populaire.*

*Cette recherche vise à résoudre une question capitale pour savoir laquelle de ces deux littératures s'inspire et se réfère de l'autre. Ainsi, la littérature officielle s'inspire-t-elle de la littérature populaire? Ou au contraire considère-t-on la littérature populaire comme conséquence de la littérature officielle? Laquelle de ces littératures influe et laquelle est influencée par l'autre?*

يعد الأدب الشعبي جزءا من التراث الشعبي، الـذي يضـم فيمـا يضـم؛ العادات والتقاليد والأزياء والطقوس والفنون والحـرف، ومختلـف المعـارف الشعبية، ولم يكن نشوء الأدب الشعبي إلا نتيجـة لاحتياجـات الشـعوب في كل زمان ومكان، إذ تطورت حركة التفكير الإنساني في تفسيره الظواهر المختلفة، من مجال السحر إلى مجال الدين، فمجال العلم؛ ويعود الفضل في حفظ هذا الموروث الأدبي إلى الذاكرة الشعبية الجماعية؛ وكم هو رائع أن نحـاول أن نستكشـف في الأدب الشـعبي تفسـير الشـعوب للظـواهر واهتماماتها، وما يجول بخواطرها؛ ذلك التفسير الـذي يـنعكس في عاداتهـا وتقاليـدها وأزيائهـا وطقوسـها، فـالأدب الشـعبي وإن كـان محليـا، ومجهـول المؤلف، ويعتمد على الرواية والحفظ، إلا أنه يلتقي مع الأدب الرسمي، إذ يحاكيـه في كـثير مـن فنونـه، فعرفـت الحكايـة الشـعبية، والمثـل الشـعبي، والشعر الشعبي، واللغز الشـعبي، والنكتـة الشـعبية، والأغنيـة الشـعبية، وهذه المحاكاة قـد تسـتلزم التعامـل مـع الأدب الشـعبي وفـق الآليـات الـتي يتعامل بها مع الأدب الرسمي.

والإشكال الذي يطرح نفسه بإلحاح هو: هل يمكن اعتبار الأدب الشـعبي مغذيا للأدب الرسمي؟ أو أن الأدب الشعبي من مخلفاتـه؟ فمـا المـؤثر منهمـا ومن المتأثر؟

سنعرّج على بعض المفاهيم وبعض المقارنات، التي سنحاول من خلالها اقتراح حلّ للإشكال المطروح.

" الأدب الشعبي هو محاولة للتعبير عـن محصـلة تجـارب المجتمـع، بوسـائل مختلفة، هي نتاج تعامل المجتمع مع الكلمة ذات الدلالة وذات المغزى"[1].

ونظرا لما يميز الأدب الشعبي من جنوح إلى القضـايا الافتراضـية، أكثـر من جنوحه إلى الواقع، فإننا نجد أن الأمثـال والحكـم الشـعبية كانـت بحـق أصدق تعبير شـعبي؛ لخلوهـا مـن التوظيـف الأسـطوري والخـرافي، الـذي طغـى علـى أكثـر التعـبير الشـعبي، خاصـة القصـة الشـعبية، فالأمثـال والحكم الشعبية ترتبط بقضايا ظرفية، وأحداث بعينهـا، وتجـارب سـابقة

تعبر عن روح الجماعة، لذلك ارتأينا أن نركز عن الأمثال والحكم، في كل من الأدبين الشعبي والرسمي، في محاولة لاستجلاء ما نطلبه.

لقد اتفق الباحثون على أن أدب الحكمة أعم من أدب الأمثال، فكل مثل حكمة، وليس كل حكمة مثلا، مع أنه في الحقيقة هناك التقاء بين المثل والحكمة، إذ تدخل الحكم حظيرة الأمثال، كما تدخل الأمثال حظيرة الحكم[2].

فإن عالجنا المثل فإننا سنصيب الحكمة حتما، وبناء على ذلك سنركز حديثنا على الأمثال.

جاء في لسان العرب: "مثل كلمة تسوية: يقال هذا مثله ومثله، كما يقال شبهه وشبهه، والمثيل كالمثل، والجمع أمثال....والمثل الحديث نفسه، وقد يكون المثل بمعنى العبرة، ويكون المثل بمعنى الآية"[3].

وهكذا ففي مستقصي الزمخشري وصحاح الجوهري ومقاييس ابن فارس حدد معنى المثل في حيز المماثلة والمشابهة والنظير.

أما في الاصطلاح فالمثل هو: "ذلك الفنّ من الكلام، الذي يتميز بخصائص ومقومات تجعله جنسا من الأجناس الأدبية قائما بذاته، وقسيما للشعر والخطابة والقصة والمقالة والرسالة والمقامة"[4]، يتميز بإيجاز اللفظ، وإصابة المعنى، وحسن التشبيه، وجودة الكناية[5].

وقد حاول بعض الدارسين تحديد تعريف للمثل الشعبي فرأوا أنه لا يعدو أن يكون"جملة أو جملتين، تعتمد على السجع، وتستهدف الحكمة والموعظة"[6].

وللأمثال مكانة سامية لدى الشعوب والأمم، منها الأمة العربية، يقول الزمخشري:"إن للأمثال مكانا راسخا في الأدب العربي، وكما أن عامة الناس يستعملونها في أثناء كلامهم على ما تقتضي الأحوال، كذلك الأدباء والكتاب يستعملون الأمثال في إنشائهم ورسائلهم، فيكون لها تأثير بليغ في النفوس؛ إذ كانت قرائض أفكارهم نتائج تجاربهم، فلذلك تعطي الأمثال فكرة الأشخاص الذين كانوا يستعملونها، وتصور لنا أخلاق الناس

وعاداتهم"[7]. فالأمثال"من شأنها ألا تـتغير، وأن تظـل طـويلا بصـورتها الأصيلة، بحكم إيجازها، وكثرة دورانها على الألسنة"[8].

والأمثـال تعكـس ثقافـة الشـعوب، ولـولا اهتمـام النـاس بالأمثـال والامتثال لما جاء فيها لما وجدناهم يستشهدون بها في كثير من المواقف.

وقد ضرب الله سبحانه وتعـالى الأمثـال لعبـاده في كتابـه العزيـز حيـث يقول : (اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَـلُ نُـورِهِ كَمِشْـكَاةٍ..)[9]. و يقـول أيضا : (وَضَرَبْنَا لَكُمُ الأَمْثَالَ)[10].

ذهب بعض المحدثين إلى أننـا نـركن إلى عـالم الأمثـال الهـادئ، وهـذا مـا يفسر كثرة استعمالنا لها، فنحن نشعر بالارتياح لمجرد سماعها، وإن لم نعـش التجربة التي أنتجت المثل[11].

ومن ينقب في أدبنا الشعبي يجد كثيرا من الأمثـال تقابـل أمثـالا عربيـة فصيحة، فالمثل العربي الفصيح القائل:" **اختلط الحابل بالنابل**" الذي يُضرب حين يختلط الأمر علـى المـرء فيفقـد التمييـز، يقابلـه في الأمثـال الشعبية المثـل العـامي"**راحتلـو الشـقرة فالشـقور**"والمثـل الأمـازيغي "**أهروحاس ذقزرين**"[12].

والمثل العربي الفصيح "**حبلك على غاربك**" الذي يضرب حين يريد المرء الحياد وعدم الاهتمـام بمـا حولـه، يقابلـه في الأمثـال الشـعبية المثـل العــامي "**الحملــة والكركــارة**"والمــثلان الأمازيغيــان "**ادج أتــتش بعضاس**"[13]. أو"**يوقور أوديثن**"[14].

والمثل العربـي الفصـيح"**بلـغ السـيل الزبـى**" والـذي يضـرب حـين يتجاوز الأمر حده المعلوم، يقابله في الأمثال الشعبية المثـل العـامي"**زاد على ما وصوه** "والمثل الأمازيغي"**هو ضد غار ييري**"[15].

والمثل العربي الفصيح "**هذه ثالثة الأثافي**" الذي يضـرب حـين يـرى المرء وضع الشيء في غير موضعه وأهمية حضوره وأساسـيته في المكـان والزمان، يقابله في الأمثال الشعبية المثل الأمـازيغي "**يوسـيد ذامغـلاق ايبش**"[16].

والمثل العربي الفصيح "**أشأم من غراب البين**" الذي يضرب حين يتطير من شيء أو من حديث، يقابله في الأمثال الشعبية المثل الأمازيغي"**سوسم آجارف**"[17].

والمثل العربي الفصيح "**حتى يشيب الغراب**" الذي يضرب حين يراد الحكم باستحالة تحقق أمنية، يقابله في الأمثال الشعبية المثل الأمازيغي "**كانما ينحق اوغيول ذي البحر**".[18]

والمثل العربي الفصيح "**يداك أوكتا وفوك نفخ**"والذي يضرب حين يحمل شخص شخصا آخر المسؤولية كاملة في أمر من الأمور، يقابله في الأمثال الشعبية المثل العامي"**اللي دارها بيديه يسلكها بسنيه**".

والمثل العربي الفصيح" **إذا كنت في قوم فاحلب في إنائهم**" الذي يضرب حين يطلب من المرء مسايرة من معه، والتعايش معهم بطريقة عيشهم نفسها، يقابله في الأمثال الشعبية المثل العامي"**اعمل كيما يعمل جارك والا حول باب دارك**".

والمثل العربي الفصيح"**أبطأ من فند**" الذي يضرب في البطء، يقابله في الأمثال الشعبية المثل العامي"**واش يخرج العروس من دار بوها**".

والمثل العربي الفصيح"**شر البلية ما يضحك**" والذي يضرب حين يستدعي شيء محزن ضحكا لصاحبه، يقابله في الأمثال الشعبية المثل العامي"**هَمّ يضحك وهَمّ يبكي**".

والمثل العربي الفصيح" **كل فتاة بأبيها معجبة**"، والذي يضرب عندما يصدر شخص حكما انطباعيا ذاتيا، يخدمه أو يخدم قريبا له، يقابله في الأمثال الشعبية المثلان العاميان"**كل خنفوس عند امو غزال**"، أو"**ما يشكر العروس غير أمها**".

فهذه النظائر من الأمثال الشعبية إما أن تكون قد أخذت من الأمثال العربية الفصيحة، أو نتجت مستقلة عنها ووافقتها.

إذا ما أخذنا بفرضية أنها أخذت من الأمثال العربية الفصيحة فهذا قد ينطبق على الأمثال العامية، ولكنه يستبعد في الأمثال الأمازيغية، فمثلا اختلاط الحابل بالنابل المتأتي من عملية الصيد لا ينقل إلى

الاختفاء الذي يسببه تشابه المخفيات في المثل "**أهروحاس ذقزرين**"، وإن كان كل منهما يدور حول قضية الاختفاء والاختلاط، فالبيئة تدخل هنا لتفصل في قضية التأثير والتأثر، فهناك مناطق تميزها نباتات بعينها عن بقية المناطق.

وإذا ما سلمنا بأن الأمثال العامية قد نقلت عن الأمثال العربية الفصيحة فإننا سنصطدم بقضية أخرى، ألا وهي أن بعض الأمثال العامية قد أخذت من الأمثال الأمازيغية-وإن كان التنوع اللغوي ساعد على تنوع الأمثال الشعبية -فلو علم متى ظهرت لفك الإبهام، لذلك سنلجأ إلى تحكيم علم البديع في قضية الترجمة الحرفية.

فالمثل العامي"**الزوخ والفوخ والعشا قرنينة**" لا نظنه إلا وقد نقل عن المثل الأمازيغي"**الزوخ والفوخ وامنسي ذافروخ**" والمثل العامي"**تبع الكذاب لباب الدار**" من المثل الأمازيغي"**حاوز آكذاب سقيمي الباب**"وإن كان هناك بعض التفاوت في المعنى.

والمثل العامي"**يضرب فالريح بهراوة**"من المثل الأمازيغي" **ايتشاث ذي الريح استغريث**"،كما قد نجد أحيانا أمثالا أمازيغية وأخرى عامية مترجمة عن بعضها، ولا يمكننا أن نحكم البديع في مثل "**خوك خوك لا يغر بيك صاحبك**"و" **يوماك يوماك خير واذغر ايسك اميس اعميك**"[19].

ففي هذه الأمثال يعتمد على الترجمة الحرفية، مما يبعثنا إلى الظن بأنها قد نقلت، كما نجد أمثالا عامية تقابل أمثالا أمازيغية مثل" **من قلة الرجال سموه راجل**"و"**سي القلث الوالي إيناس يوغيول آخالي**"[20]. و"**اللي يحب اللو يسهرلو**" و"**أوقخس اسغلي اذيوث ابغلي**"[21].

بالإضافة إلى تشبع المثل العامي بالمثل الأمازيغي، فقد تشبع أيضا بالمثل العربي الفصيح، وهنا فقط يمكننا الجزم بأن الأمثال العامية نقلت من الأمثال العربية الفصيحة.

فالمثل العامي "**الكلب يحب خانقو**" نقل من المثل العربي الفصيح "**أحب أهل الكلب إليه خانقه**".

والمثل العامي "**الجار قبل الدار**" نقل من المثل العربي الفصيح"**الجار ثم الدار**"، وقد ذهب بعض الدارسين إلى أن الأمثال الشعبية تتعارض أحيانا وتصل إلى حدّ التناقض، ولكن هذا نجده أيضا في الأمثال غير الشعبية.

فالمثل العربي الفصيح" **الجار ثم الدار**"يناقض ويعارض المثل العربي الفصيح " **بعت جاري ولم أبع داري**"، كما يعارض المثل العامي "**اللي كان خالي خلاني واللي كان عمي عماني**" المثل العامي" **ما يجي عمي حتى يشبع الهم مين**".

وتفسير ذلك أن المثل يصدر عن مثال في لحظة معينة، قد تناقض اللحظة التي يصدر فيها مثال آخر مثلا، فينتج مثل يعارض آخر.

بالإضافة إلى ما وضحناه فنحن نعلم أن اللغات قبل أن تصبح رسمية كانت عبارة عن لهجات، واللغة هي التي ينتج بها الأديب أدبا، فالأدب الرسمي لم يكن في بداياته إلا أدبا شعبيا، فالزمن كفيل بتغيير بعض معايير ضبط الأدب الشعبي؛ من حفظ وشفوية، و محلية، و مجهولية مؤلف...

إذا فالأدب الشعبي في أخذ وعطاء مع الأدب الرسمي، وعلينا أن نعمل على إحياء تراثنا الشعبي، ولنسع لإذاعته في كل مكان، حتى يحفظ فليس لأي إنسان الحق في إعلان الثورة على تراثه وتقاليده.

**الهوامش والمراجع المعتمـــــــدة**

(1) حلمي بدير.أثر الأدب الشعبي في الأدب الحديث.دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر.الإسكندرية .ص14.

(2) سليمان محمد سليمان.دراسات أدبية في الخطب والأمثال الجاهلية. دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر. الإسكندرية.ط1.2005.ص93.

(3) ابن منظور.لسان العرب.دار المعارف.القاهرة.مج6.ص4132.مادة " مثل "

(4) عبد المجيد قطامش.الأمثال العربية.دراسة تاريخية تحليلية.دار الفكر. دمشق. ط1، 1988ص89.

(5) حنا الفاخوري.الحكم والأمثال.دار المعارف.ط2 . 1969. ص8-9 .
(6) ابراهيم أبو سنة. فلسفة المثل العربي.دار الكتاب العربي للطباعة و النشر .القاهرة .1968ص26.
(7) الزمخشري.المستقصى في أمثال العرب دار الكتب العلمية . ط2 . بيروت. 1978، المقدمة.ص4.
(8) العصر الجاهلي. شوقي ضيف. دار المعارف. ط11.ص404.
(9) سورة النور. الآية35.
(10) سورة ابراهيم. الآية45.
(11) نبيلة ابراهيم. أشكال التعبير في الأدب الشعبي. مطبعة العالم العربي القاهرة.ص147.
(12) " ضاعت له وسط نبات "(نوع من النبات يمتاز بالنمو الكثيف، فإذا اختفى فيه شيء يصعب إيجاده).
(13) " أتركها يأكل بعضها بعضا ".
(14) " ذهب ما عاد ""(النفي هنا يتضمن أحيانا الدعاء من أجل عدم تحقق ما بعد حرف النفي فلو أضفنا حرف العطف قبل حرف النفي سيكون المثل قد أفرغ من محتواه ).
(15)" وصلت إلى الرقبة".
(16)" صلح كقفل للقرن "(في حقبة زمنية معينة كان المدخنون يستخدمون قرون الكباش لحفظ التبغ، وكانوا يسعون لإيجاد أفضل الأقفال للقرون التي بحوزتهم).
(17)" أسكت يا غراب".
(18) "حتى ينهق الحمار في البحر".
(19)" أخاك أخاك أفضل من أن يخدعك ابن عمك".
(20)" من قلة الأقرباء اعتبر الحمار خالا ".
(21) "من أراد غذاء طيبا فليسع من أجله ".